بسم الله الرحمن الرحيم

المشاركة في الملتقى الدولي بعنوان:

الحديث النبوي وآليات تحليل الخطاب

بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-قسنطينة (الجزائر).

يوم: 14 – 15 – 03 - 2022

المحور الثاني: الحديث النبوي وتحليل الخطاب (آلية التحليل اللغوي)

بمداخلة عنوانها:

التحليل اللغوي للحديث النبوي عند محمد محمد أبي موسى في كتابه (شرح أحاديث من صحيح البخاري)

Linguistic analysis of the hadith of the Prophet according to Muhammad Muhammad Abi Musa in his book (Explanation of hadiths from Sahih al-Bukhari)

د.اليزيد بلعمش.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة ﴿الجزائر﴾

el-yazid@hotmail.com

البريد المهني: y.belameche@univ-emir.dz

ملخص:

يعد الحديث النبوي المدونة الثانية من المدونات اللغوية التي تحظى بمكانة في اللغة العربية، وقد تضمنت هذه المدونة من مكونات الخطاب وأدواته ما يوجب على الدارسين للغة العربية ولتحليل الخطاب أن يعتنوا بها، لاستخراج تلك الآليات والخصوصيات التي امتاز بها الخطاب النبوي في الحديث النبوي.

اجتهد العلماء في ذلك قديما وحديثا وكان من بين هؤلاء الذين عنوا بتجلية بعض الخصوصيات الخطابية في الحديث النبوي بدراسته وتحليله بآليات لغوية: محمد محمد أبو موسى البلاغي المشهور، لقد قدم كتبا نفيسة في هذا السياق من بينها: شرح أحاديث من صحيح البخاري دراسة في سمت الكلام الأول- وكان شرحه متينا يحتاج إلى إعادة تحليل وتفكيك لاستخراج كيفيات التي أعمله بها محمد أبو موسى آليات التحليل اللغوي لاستخراج خصوصيات الخطاب النبوي .

Summary: The Prophet's Hadith is the second of the linguistic codes that have a place in the Arabic language, and this code included the components and tools of discourse that students of the Arabic language and discourse analysis must take care of, to extract those mechanisms and peculiarities that characterized the Prophet's discourse in the Prophet's Hadith.

Scholars worked hard in this ancient and modern and among those who meant the manifestation of some discursive peculiarities in the hadith of the Prophet by studying and analyzing it with linguistic mechanisms: Muhammad Muhammad Abu Musa the famous rhetorician, he has presented precious books in this context, including: Explanation of hadiths from Sahih al-Bukhari - a study in the azimuth of the first speech - and his explanation was solid that needs to be re-analyzed and dismantled to extract the modalities that I work with Muhammad Abu Musa Mechanisms of linguistic analysis to extract the peculiarities of the Prophet's discourse

مقدمة:

حظي الحديث النبوي بمكانة مرموقة في الحضارة الإسلامية، تولد عن هذه المكانة هيبة وإجلال، من جانبين كبيرين: الأول منهما: خوف النسبة بعدم ثباتها، والثاني: خوف التغيير والتحريف في النقل، وهذا ما يفسر لنا قلة حضوره في الاستشهاد والاستدلال به في الدراسات اللغوية، أما مرتبته في القوة اللغوية والفصاحة والبلاغة فلم يشك في ذلك شاك، ولا ارتاب فيه مرتاب، بل لقد تهيأ للحديث النبوي من أسباب القوة في هذا السبيل ما لم يتهيأ للمتكلم باللغة العربية، فقد كان ﷺ نبيا، والشافعي يقول: " ولسان العرب: أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غيرُ نبي"[(1)]، ومما يدل حقيقة على إحاطته ﷺ باللغة وعلى فنون تصريف القول بها، أن فصاحته ﷺ هذه مَسَّت جميع أنواع البشر على اختلاف مراتبهم وتنوع حوائجهم، كما أنها كانت في كل مجالات الحياة وشعبها، فكانت بذلك فصاحة وبلاغة.

ونحاول فيما يأتي أن نأتي على بيان بعض الخصائص الخطابية في أحاديثه صلى الله عليه وسلم متكئين في ذلك على التحليل اللغوي للعبارات التي جاءت في هذه الأحاديث، لكن قبل ذلك فيسحن أن نوجه الفكر بداية إلى التعرف على مفهوم التحليل اللغوي.

1- مفهوم التحليل اللغوي:

من اليسير جدا أن نحدد مفاهيم المفردات المؤلفة لهذا المصطلح "التحليل اللغوي" فهو كما يظهر مؤلف من:

* كلمة (التحليل): وهو مفهوم علمي شاع وراج في كثير من أوساط العلمية، ويعنون به: "عملية تقسيم موضوع أو مادة معقدة إلى أجزاء صغيرة من أجل الحصول على فهم واستيعاب أفضل لهذا الموضوع أو المادة. تم تطبيق هذه التقنية في علوم الرياضيات والمنطق منذ القدم (ما قبل أرسطو 322–384 ق.م) على الرغم من أن التحليل كمفهوم رسمي هو تطورٌ حديثٌ نسبياً"[(2)].

فهو عملية تفكيك للموضوع وذلك لصعوبة التعامل معه جملة، فنروم من ذلك تبسيط الأشياء المتعامل معها ليسهل تصورها والإحاطة بها .

---

(1) الشافعي، الرسالة، تح: أحمد شاكر، الناشر: مكتبه الحلبي، مصر، الطبعة: الأولى، **1358**هـ/**1940**م ، (ص**34**).

(2) موسوعة ويكيبيديا: الرابط: زيارة يوم: **2022/01/22**.

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%AD%D9%84%D9%8A%D9%84#cite_note-1

* وكلمة (اللغوي): وهو اسم منسوب للغة، وأبرز مفهومها ما ذكره ابن جني من "أنها: أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[1].

قلت: من اليسير تحديد مفرداته المكونة له، أما المركب الوصفي التحليل اللغوي: فإنه من الناحية النظرية، لم نجد نصا على تحديد مفهومه، وإن كان مستعملا بكثرة من الباحثين عناوين لكتب أو منصوصا عليه في خضم الكتب اللغوية، مما يستدعي عملية قراءة فحصية لتتبع مفهومه في ناحية الإجرائية لاستعماله أو لتوظيفه.

إن تتبع بعض السياقات التي استعمل فيها المصطلح ليكشف لنا، الوصفية بين لفظة (التحليل) و(اللغوي) إنما هي قائمة بين الأداة وموطن إعمالها أو بين الوسيلة وموضع عملها أو كما يعبر عنه من وصف المفعول بالفاعل، فالتحليل هو الفاعل واللغة هي المفعول بها.

وعليه يكون التحليل اللغوي: هو عملية تفكيك وتبسط لمكونات اللغة في جوانبها المختلفة لفهم مضامينها وتحديد آلياتها والكشف عن مقاصدها وأبعادها.

قلنا هو تفكيك وتبسيط لمكونات اللغة: وقد سبق لنا أن عرفنا اللغة بتعريف ابن جني الذي هو أقرب التعاريف إلى ماهية اللغة، وقد كشف لنا فيه ابن حني عن المستويات المؤلفة للغة: وهي المستوى الصوتي، والإفرادي والتركيبي والدلالي والبلاغي، فالتحليل اللغوي إذا يمس كل هذه المستويات، أو بعبارة أخرى: إن التحليل اللغوي لا يتم إلا بالمزج بين تحليل هذه المستويات جميعا، واستحضار ما يتعلق بكل مستوى من المستويات عند الحاجة.

وبهذا يظهر أن التحليل اللغوي متعدد أعراض ومختلف الصور والمقاصد، فهو بحسب المساحة التي يستعمل فيها، فقد يكون التحليل اللغوي في دائرة الصوت فيكون القصد منه الكشف عن الأصوات المؤلفة للملفوظ، ولهذا قد نختصره فنطلق عليه (التحليل الصوتي) وقد يكون التحليل اللغوي في نطاق الكلمة لبيان هيئاتها المختلفة وبناها المتنوعة، فقد يكون التحليل اللغوي في دائرة الجملة، فيكون القصد منه معالجة مكونات الجملة وتركيبها، وبيان نمطها ومدلولها، وهو الذي يسميه بعضهم التحليل النحوي كما هو عند فخر الدين قباوة في كتاب أطلق عليه هذا العنوان.

وقد تتوسع دائرة لتحوي النص، فيكون عندئذ التحليل اللغوي النصي، وقد يكون المقصود من التحليل الكشف عن العناصر المؤثرة في دلالة الكلمات فيكون التحليل عندئذ تحليلا لغويا دلاليا، ... وهكذا قد تتسع الدائرة البحث في التحليل اللغوي لتصل بعدها إلى النظر في الخطاب فيكون تحليلا لغويا للخطاب. وهذا الذي نريده في هذه الأوراق.

إذا التحليل اللغوي مرتبط في أغراضه وأهدافه ووسائله بالمساحة التي يشتغل فيها، وإن كانت في اسمها العام، هي اللغة، إلا أن للغة جهات وأوجه متعددة للنظر فيها، منها النظر إلى اللغة على أنها خطاب فنعتمد إلى التحليل اللغوي للكشف عن الخصائص الخطابية في اللغة، ومنها إلى الكشف عن جانب من جوانب اللغة في شكلها الخِطَابِي، وهذا له أهمية كبرى في الدرس اللساني، لأن الغاية التي

---

(1) ابن جني، الخصائص، تح: الخصائص، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الرابعة (ج**1**، ص**34**).

أوجدت من أجلها اللغة أساسا إنما هي التواصل بين الناطقين بها، والبحث في المساحة التواصلية للغة هو البحث الذي نجد فيه توظيف كل الوسائل المتاحة لإبلاغ الرسالة، وهو الموطن الذي يكشف لنا عن المقصد الحقيقي الذي يراد من المتكلم.

والذي يهمنا أن التحليل اللغوي هو الكشف عن طريقة تفعيل الأدوات وكيفية استعمالها، ونوع المساحة اللغوية المشتغل فيها هي التي تحدد نوع الكشف . فالمساحة اللغوية هي بمثابة مختلف الصناعات والحرف، والتحليل اللغوي هو طريقة العمل في كل حرفة أو صناعة.

2- الخطاب ومكوناته اللغوية:

ولسنا هنا بصدد الخوض في التفاصيل الدقيقة للمفاهيم التي ينبئ عنها مفهوم الخطاب عند اللسانيين المحدثين[1]، وإنما القصد إلى تحديد المفهوم العام للخطاب والمكونات التي ينبئ عنها هذا المفهوم، لتكون تلك المكونات محط نظر واهتمام في التحليل اللغوي للحديث النبوي.

إن الخطاب في مفهومه العام ينقلنا إلى الجو الاستعمالي للغة، وعليه يمكن القول بأن الخطاب: "هو الكلام الحاصل بين شخصين أو أشخاص في سياق معين"، وهذا المفهوم يكشف لنا عن تعدد كبير عناصر العملية التخاطبية وهي تشمل وسائل لغوية ووسائل غير لغوية والذي يهمنا من هذا الوسائل اللغوية وعلاقتها بالعناصر التخاطبية الأخرى باعتبار أن بحثنا في التحليل اللغوي.

ومن أهم هذه العناصر اللغوية المؤلفة له:

أ - **الشكل اللغوي**: ذهب بعضهم إلى أن للخطاب محددا بما يتجاوز الجملة، لكن الناحية التداولية له تثبت عدم تقيده بذالك، -وإن كان هذا هو الشكل اللغوي الغالب على الخطاب-، قلت: والناحية التداولية للخطاب تثبت عدم تقيده بما يتجاوز الجملة، والسبب في ذلك راجع أساسا إلى ارتباط مفهوم الخطاب بالتلفظ بهدف التأثير أو التلفظ الحامل للقصد. وهذا المفهوم يجعل الخطاب منفتحا على كل الأشكال اللغوية التي تكون بالجملة أو دونها أو ما يتجاوزها. ولهذا نجد أن الباحثين اللسانيين يذهبون إلى أن الخطاب كما يكون بالرسائل اللغوية فقط، قد يكون بغير الوسائل اللغوية، كما هو الحال في بعض الإشارات والرسومات التوجيهية ... وغيرها، كما يمكن أن يكون باجتماع الوسائل اللغوية وغير اللغوية. ولكن الوجهة اللغوية هي التي تحتم علينا الاهتمام بالخطاب اللغوي دون غيره. مع اعتبار الوسائل اللغوية التي تكون إشارات إلى غيرها.

ب - **العناية بما وجد بالفعل**: معلوم عند الجميع أن اللغة على جانبين جانب منها يوجد بالفعل وهو الحدث اللغوي المتلفظ به حقيقة في سياق تواصلي معين، وجانب منها يوجد بالقوة؛ وهو ما يمكن أن يُتلفظ به في ذلك السياق من الاحتمالات التي تتيحها اللغة للمتكلم في مثل ذلك السياق. وفي التحليل اللغوي للخطاب إنما نعنى بما هو موجود فعلا، أي بالحدث اللغوي، ولا نلتفت إلى ما هو موجود في

---

(1) تناولت كثير من المراجع مفهوم الخطاب لغة واصطلاحا، عند العرب وعند الغرب، ولهذا لم نشأ أن نثقل البحث،بإعادة نقل تلك التعريفات وإثباتها هنا، وإنما عمدنا مباشرة إلى المقصود، ومن أراد التوسع في هذا فليراجع : عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة–بيروت، ط**1**، **2004** (من: ص**34** وما بعدها)

اللغة بالقوة إلا بالقدر الذي يساعدنا على تحليل ما هو موجود بالفعل، لأن قيمة بعض العلامات اللغوية وبعض التراكيب لا تظهر عند مقابلها بما يخافها.

ج - **تعدد مدلولات العلامة اللسانية**: العلامة اللسانية لها وضعيتان: إما أن تكون مفردة أو تكون في تركيب، والتركيب إما أن يكون في سياق وإما أن يكون مجردا عن السياق،والذي يعنينا في العملية التخاطبية إنما هو التركيب الذي يكون في سياقه، وهنا يكون للعلامة اللسانية شأن غير شأنها وهي مفردة أو مجردة عن سياقها،فهي مع السياق تنفتح على مدلولات قد لا تكون لها بالوضع، لكن السياق يفتح لها مجال تعدد الدلالة، ليدل على معان ما كان لها ليدل عليها بغير السياق. وهو من جانب آخر يجعل دلالتها قارة على معنى معين، لكنه قد يكون معنى جديدا عنها.

د - **ارتباطه الوثيق بالسياق**: وهذا من أبرز العناصر المهينة على الخطاب اللغوي والمسيطرة عليه، ولهذا عدة منه،حتى قيل إن "الخطاب هو اجتماع جمل سياقية متتالية"، ارتباطه بالسياق من جانبيه الداخلي (اللغوي) والخارجي(غير اللغوي). وهذا يعني بصورة أخرى أشياء لها أهمية كبرى في التحليل اللغوي للخطاب،

- من جهة أن ارتباط الخطاب بالسياق اللغوي فهو يعنى دراسة العلاقات الترابطية بين الأجزاء اللغوية المكونة للخطاب من جهاتها المختلفة: من جهة اتساقها وانسجامها وأنواع المناسبات المختلفة، وهذا بدوره له أهميته الكبرى في الكشف عن الطرق التي يتم بها بناء الخطاب اللغوي ونسجه على وفق المقاصد والأغراض.

- أما ارتباطه بالسياق الخارجي (غير لغوي) فهو يعني أن اللغة المتحدث بها مرتبطة ارتباطا وثيقا بسياقها الاجتماعي والسياسي والثقافي و... و.... و... بما يجعل قصد المتكلم وفهم الدلالة ومدلول العلامة مرتهن بالسياق وبالتالي لا يمكن أن تكون الدلالة ثابتة، بل هي متغيرة ومتحورة على حسب الموافق والحالات.

إن السياق بهذه الاعتبارات يعد من أبرز العوامل المهيمنة على صناعة الخطاب وتحديد شكله وحجمه، وإبراز مقصده، **فهو وجه من وجوه انسجام القائل مع محيطه**، كلما كان كلامه منسجما في لغته ومع سياقه، وهذا دليل على احتواء المتكلم للواقع الذي يعيشه ويحيا فيه . كما أنه بصورة أخرى يكون هذا **الخطاب اللغوي حاملا للمضمرات الثقافية والاجتماعية والفكرية المنشأة لهذا الخطاب**، فيكون الخطاب اللغوي صورة عن واقعه، وأحيانا أخرى مفسرا لبعض ما لا يمكن فهمه من تصرفات ظاهرة إلا عبر تتبع تلك المضمرات الفكرية والثقافية الكامنة وراء الخطاب اللغوي.

هـ - **استثمار كل الوسائل اللغوية**: إن الخطاب بالمفهوم السابق، وبهذه الخصائص التي مضى بيانه مما يدخل في تأليفه وتكوينه، وهو اتكاء الخطاب في تأدته على استثمار كل الوسائل اللغوية المتاحة، سواء:

- ما تعلق منها بأجزاء التلفظية: من علامات لسانية، وعلاقات تركيبية،

- أو ما تعلق منها بأجزاء مصاحبة للعملية التلفظية: كطريقة النطق (نبر، وتنغيم ...)، أو علاقات دلالية ....

هذا المفهوم شامل لجميع مستويات اللغة مع ما يصاحب هذه المستويات من معضدات للعلامات اللسانية في آدائها لوظيفتها اللسانية.

و- الحمولة القصدية للعبارة اللغوية: العبارة اللغوية في الخطاب اللغوي عبارة هادفة تسعى إلى أن تبلغ حمولة دلالية قصد المتكلم توصيلها إلى المخاطَب (السامع)، فالعلاقة الدلالية بين الدوال والمدلولات في الخطاب هي علاقة حتمية، تفرضها القصدية التي يعمد إليها المتكلم. بمعنى آخر: إن العلاقة بين دوال ومدلولاتها في الخطاب اللغوي هي علاقة يبنيها المتكلم من وحي قصده في إطار العرف اللغوي العام المشترك بين المتكلمين بتلك اللغة، وهذا في الحقيقة يفتح الباب للمتكلم في أن يبدع في إنشاء علاقات جديدة في الإطار اللغوي، بمعونة السياق. إن هذه العلمية يمكن أن نترجمها بأن المتكلم في هذا الإطار قد عمد إلى تفكيك العلاقة القائمة بين الدوال والمدلولات في المعرفة المشركة ليعيد بناءها أو يبقيها على حالها على حسب ما يتطلبه مقصده.

إن القصد بهذه الصورة هو العمود الفقري لعملية تأسيس الخطاب وبنائه.

هذه –فيما يبدو من مفهوم الخطاب- هي العناصر اللغوية المؤلفة له، وعلى هذا يكون التحليل اللغوي للخطاب أيا كان هذا الخطاب، سائرا على تتبع هذه العناصر في الخطاب النبوي على قائله أفضل الصلاة والسلام.

3- التّحليل اللّغويّ للحديث النّبوي عند محمد محمد أبي موسى: هنا نأتي إلى المقصود من هذا البحث وهو النظر في التحليل اللغوي الذي قدمه محمد أبو موسى للحديث النبوي في كتابه الموسوم "شرح أحاديث من صحيح البخاري دراسة في سمت الكلام الأول". لكن قبل هذا ينبغي أن نلفت إلى ما بين مصطلح (الحديث) ومصطلح (الخطاب) من تقارب أو فوارق لنتبين من ذلك مدى توافر خصائص الخطاب في الحديث النبوي.

أ- بين مصطلح (الحديث) ومصطلح (الخطاب): لقد رأينا فيما سبق أنّ مصطلح "الخطاب" من المصطلحات التي لقيت رواجا واسعا من الباحثين اللسانين في العصر الحديث، وكان محورا تدور عليه مختلف الدراسات اللسانية وحتى الدراسات الأدبية، كونه يركز على اللغة في جانبها الحي؛ هو الجانب التواصلي. فلماذا كان هذا المصطلح بالذات دون غيره من المصطلحات الأخرى: الكلام، الحديث، ... الخ.

لقد جاء في بعض معاجم المصطلحات: "أن ترجمة Discourse هي: الكلام والخطاب والحديث"[1] بما يدل على أن هذا الترادف الاصطلاحي بين هذه المصطلحات، والمعاجم اللغوية قد أشارت إلى شرح لفظة الخطاب بالحديث مما يدل على التقارب الدلالي في الدلالة اللغوية[2].

إن الترادف الاصطلاحي بين لفظة (الحديث) ولفظة (الخطاب) والتقارب اللغوي الدلالي بينهما، تجعلنا نقول بأن الحديث النبوي إنما هو خطاب له خصائصه واستراتيجياته وميزاته وآلياته التي تميزه

---

(1) محمد عناني، المصطلحات الأدبية الحديثة دراسة ومعجم إنجليزي عربي، الشركة المصرية العالمية لونجمان، ط3، 2003 (ص19)

(2) ينظر مثلا: ابن فارس، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، طبعة: 1399هـ (ج2، ص198) .

عن غيره من الخطابات الأخرى، بل تسمية كلام رسول الله بهذا الاسم (حديث) تجعله من أقوى أنواع الكلام الذي تتمتع بالخصوصية الخطابية مقارنة له بغيره نظرا لما يتمتع به من المكونات النصية والسياقية والملابسات النوعية التي تجعله خطابا يستجمع عناصر الخطاب وآلياته، ولا شك أن لهذا الخطاب من أهمية ما كان لصاحبه ﷺ من المنزلة والمكانة.

وإنما نبقي هنا على لفظة (حديث) لأنها قد أخذت من الخصوصية النبوية أكثر من غيرها، ولأنها التصقت بخطاب النبي ﷺ لا بخطاب غيره. فصارت بذلك -علما- على كلام رسول الله ﷺ.

ب- الحديث النبوي ودراسة أبي موسى له: أبو موسى من الباحثين المعاصرين الذي أولوا عناية فائقة للبحث البلاغي التراثي، فقدم مجموعة من الدراسات في الجانب البلاغي تناول فيها مباحث متعددة: بعضها كان في الجانب التأصيلي للدرس البلاغي: كقراءاته لبعض كتب البلاغيين(الجرجاني، حازم القرطاجني، ....) وبعضها يعنى بالجانب التطبيقي: كقراءاته لبعض الأشعار القديمة وتطبيقاته في بعض السور القرآنية ... ، وبعضها عني فيه بالجانب التعليمي.

ويبدو أن قراءة البلاغية للأحاديث النبوية لم يحض بهذه العناية إلا بعد تقديمه للجهد السابق كله، فأحس بضرورة متابعة كلامه ﷺ، فقدم لنا كتابان في هذا السياق، أحدهما شرح لبعض أحاديث صحيح مسلم جاء في مجلدين، وآخر شرح لبعض أحاديث صحيح البخاري.

هذا فيما يتعلق بالجهد العام الذي قدمه أبو موسى، والذي يعنينا من هذا كله، هو تتبع التحليل اللغوي في شرح الأحاديث التي تناولها أبو موسى من صحيح البخاري.

وأول ما يلفت في هذا الشرح هو العنوان الصغير الذي ذيل به العنوان الكبير، فعنونه: شرح أحاديث من صحيح البخاري -دراسة في سمت الكلام الأول-

فما المقصود بـ(سمت الكلام الأول)؟: وحتى لا نطيل في المقصود بها إطالة تصرفنا عما توجهنا إلى من بيان التحليل اللغوي الذي تضمنه هذا الشرح للأحاديث، فإن السَّمت المقصود به: التفرد والتميز في المذهب والطريق، كما تقول: وسمت الإبل؛ أي جعلت لها مِيسما تعرف به، فلا تختلط عندك بغيرها من الإبل عند ورودها على الماء[1].

وعلى هذا يصير معنى السمت في كلامه ﷺ على ما أراده أبو موسى من ذلك: "أن لا يمنع أن يكون لكلامهﷺ وسم يعرف به وخصوصية تدل عليه لا من جهة طابع النبوة الذي هو ظاهر جدا في كلامه ﷺ، وإنما من جهة ما يتميز به الكلام، وما يكون له به سمت وطريق ومذهب"[2].

أما بالنسبة للفظ (الكلام الأول) فالمقصود به "كلام الجيل الأول الذي نزل فيه القرآن"[3]، لأن الأمر في هذه المسألة مبني على "الأزمنة تضع وسمها وطابعها على البيان كما يضع الأفراد، ... ، ولأن لكل زمان

---

(1) محمد أبو موسى، **شرح أحاديث من صحيح البخاري –دراسة في سمت الكلام الأول–** ، مكتبة وهبة – القاهرة، ط2، 2010(ص48).

(2) شرح أحاديث من صحيح البخاري (ص51)

(3)شرح أحاديث من صحيح البخاري (ص51)

خصوصيات وأحوالا أكثرها في مقدور كل أبنائه ... ويبقى التميز الفردي في وسط التشابه الجمعي أمرا ممكنا"[1].

والحامل على النظر في هذا النوع من الكلام إنما هو العناية به في مقابل العناية الكبيرة التي لقيها الشعر ولم يلقها نثر هذه الطبقة، على الرغم من أنه صنو هذا الشعر في جودة البيان وصفاءه، وصحة اللغة.

وهذا الذي ذكره أبو موسى له جانبان:

- جانب الحديث عن الفرادة التي تميز بها الخطاب النبوي، وهذا مما أقر به الدارسون، وهذه الفرادة هي التي جعلت الحديث النبوي في الرتبة الثانية بعد القرآن الكريم.
- الحديث النبوي باب من أبواب اللغة العربية التي ينبغي على الدارس طرقها، لأنه مادة مكونة للغة العربية من جهة أنها تمثل سمتا في الكلام لم يوجد في غيره.

ج- التحليل اللغوي للحديث النبوي عند أبي موسى:

وبعد هذا كله، نأتي الآن إلى المقصود من البحث، هو الحديث عن التحليل اللغوي للحديث النبوي عند أبي موسى، مستحضرين إبراز خصائص الخطاب النبوي التي تفسر لنا فرادة البيان فيه، وامتداد نفس العطاء فيه، واستمرارية علو مقاصده نفاسة وتجددا، مع توضيح أبعادها ومضامينها.

أ- الوضوح في الخطاب اللغوي النبوي: أول ما يلفت النظر في بداية تحليل أبي موسى للأحاديث النبوية، افتتاحه بكلام يحي حقي حين يقول:"إذا كان النص واضحا فإن تدخل الدارس بينه وبين القارئ يكون أمرا غير مقبول"[2]، ليعقب أبو موسى بعد هذا الكلام بقوله: "وأنا هنا لا أشرح هذا الكلام الشريف وإنما أحلل بناءه وأستكشف الصنعة البيانية، والمكونات اللغوية التي قام النص عليها، وشكلت صورته وحددت هيئته ووضعت له ملامحه وجعلت منه وله هيئة يختلف بها عن غيره من النصوص"[3].

هذان النصان: ما نقله أبو موسى عن غيره، وما قاله، ينبئان عن الوضوح الذي تضمنه الخطاب النبوي، والوضوح في أصله إنما هو صفة للمعاني والدلالات، لكن هذه الصفة التي تأخذها المعاني والدلالات لا تكون إلا بلغة سلسلة في تألفها، قريبة في استعمالها، دقيقة في تراكيبها واختياراتها، تؤدي هذا الوضوح.

وقضية الوضوح في الحديث النبوي هي أوسع من أن تحصرها قضايا لغوية تجسدها[4]، والبحث في هذه الظواهر قد وجد في دراسات سابقة لتراكيب الحديث النبوي منها هذه الدراسة التي جعلناها

---

(1)شرح أحاديث من صحيح البخاري (ص**49**)

(2) شرح أحاديث من صحيح البخاري (ص**62**).

(3) شرح أحاديث من صحيح البخاري (ص**62**)

(4) لا أريد هنا –وإن كان عنوان البحث التحليل اللغوي– أن أبحث مظاهر اللغوية للوضوح التي أشار لها النحاة واللغويون في الاستقامة، وأشار لها البلاغيون في كثير من المباحث بيان توافق المقام مع الخصائص التركيبية مع خلو اللغة من ضعف التأليف ومن التعقيد المعنوي، وأشار لها علماء فقه اللغة في إحكام المصاحبات اللغوية، ودقة الاختبارات اللفظية، ... وغيرها، وإن كان في لغة الحديث النبوي ما يظهر أنه

منطلق التحليل اللغوي، ولكن الذي يهمنا هنا مما له تعلق بتحليل الخطاب، أن لهذا الوضوح اللغوي أبعادا تواصلية غاية في الأهمية يمكن لنا أن نسجل منها:

- أن اللغة الحديثية هي تعبير عن حس وجودي ومنهج حقيقي في الحياة، وتعبير صادق عن رغبة قوية في الانتماء والتواصل، بل هي تعبير صريح عن رؤية واضحة لوظيفة الإنسان الصادق في الحياة الفعلية، فلم تكن لغته ﷺ من اللغات المقفلة على ذاتها، متنكرة لواقعها، مجتثة أو معزولة عنه، أو متعالية عليه، أو نازلة عنه، إنما كانت لغة تعيش الواقع وتلامسه وتلاصقه، لكنها في وقت ذاته تسعى إلى

- أن أحاديثه صلى الله عليه وسلم إنما هي رسائل ذات هدف ومقصد وقيمة يراد منها التوجيه والنصح والإرشاد والتنوير، ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يخاطب بكلامه جميع المكلفين بما يفهمونه، فكان المقصد العام من الحديث بيّنا لكل من كان عربيا؛ يفهم العربية، ثم الناس تتفاوت في درجات الاستنباط من الأحاديث النبوية.

وهذا فسح المجال نحو الحديث النبوي في أن يكون خطابا متعددة الأنماط، فهو خطاب تعليمي حيث يكون القصد والغرض ذلك الأمر وتلك الغاية، فبرز هذا النحو جليا في أحاديثه ﷺ مع أصحابه حيث كانوا يتبعونه لأجل هذا الأمر، فهذا أبو هريرة كان يلازم رسول الله ﷺ في كل أحواله ليحفظ عنه ما يقوله، كان ابن الخطاب يقتسمان هو وجاره المكث عند رسول الله ﷺ لئلا يفوتهم شيء من الحديث، هذا النوع من الخطاب هو الغالب على أحاديث رسول الله ﷺ، ولهذا وصف ﷺ بأنه معلم ومربي.

وقد يكون خطابه ﷺ خطابا حجاجيا إذا اقتضى الأمر ذلك، كما حصل ذلك في مواقف كثيرة له ﷺ خاصة في رسائله إلى الملوك لدعوته لهم، أو كما حصل مع بعض أصحابه كمن جاءه يطلب الرخصة له في الزنا، فخاطبه بما يقنعه.

وقد يكون خطابه ﷺ خطابا تعبديا وذلك إذا تعلق الأمر بالأدعية والأقوال التي تقال في سياقات تعبدية خاصة، كأذكار الصباح والمساء وغيرها.

قد يكون الخطاب في الحديث النبوي خطابا سرديا، وذلك عندما يتعلق الأمر بالحكاية عن رسول الله ﷺ كحديث بدء الوحي فإن جله من كلام عائشة رضي الله عنها- أو كحادثة الاستسقاء في حديث أنس رضي الله عنه عندما قال: "أصاب أهل المدينة قحط ... (الحديث)"، وهذا ما يفسر قول المحدِّثين: بأن الحديث النبوي ما ما أضيف إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- قولًا أو فعلًا أو تقريرًا [بعد البعثة] أو صفة، وفقهاء خراسان يسمعون الموقوف أثرًا والمرفوع خبرًا وعلى هذه التفرقة جرى كثير من المصنفين.[1]

مخالف لاستقامة النحاة، لمناسبة فقهاء اللغة، وفيه من التعقيد ما عابه البلاغيون، فهذا الفعل اللغوي له مبرراته التداولية والاستعمالية التي جعلته يخرج عن القواعد القياسية عند هؤلاء.

(1) قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث (ص62).

- أن هذا التنوع في صيغ الخطاب النبوي يوحي بالمرونة الكاملة في التواصل بحسب تعدد ظروف الخطاب وأحواله، فلم تكن الأحاديث النبوية قالبا واحدا، وإنما تشكلت وتكونت وتنوعت تنوعا يراعي تلك الظروف، وهذا يدل على تحليل مستمر ووعي متواصل بتلك الظروف والأحوال التي يعيشها المرء، والنبي ﷺ كان من أحرص الناس على مراعاة أحوال الناس وظروفهم في مخاطباته وحواراته، كل هذا لأجل أن يكون خطابه واضحا مفهوما عند جميع المخاطبين به، لأن غايته تثبيت الحقائق وتمكينها في النفوس.

وهذا ما يجعلنا نقول في اطمئنان إن الخطاب اللغوي النبوي خطاب يمتاز بإحكام في ارتجاليته وعفويته تلقائيته الوضوح والبيان الذي يسعى إليه، وهذا سياق عام وخط متصل في كل أحاديثه عليه الصلاة والسلام، وهذا لا يكون إلا عن تأييد كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4)﴾ [النجم].

وهنا نفتح قوسا منوها بأمر في غاية الأهمية والخطورة، ألا وهو: إن الحديث النبوي بهذا الرقي اللغوي مع هذا الوضوح الدلالي يجعله من أخصب المدونات اللغوية، بل أخصبها جميعا في تعليمية اللغة العربية، ونلح على استثماره في ذلك، لأنه يتعامل مع الواقع بكل بساطة، وقد نُقل إلينا بكل ظروفه التداولية مما جعله خطابا حيا.

ب- **هيكلة البناء اللغوي**: هذا من الخطوات المهمة في تحليل اللغوي للخطاب النبوي، هو النظر في هيكلة البناء اللغوي للحديث النبوي وطرق بناءها، ويتضح لنا هذا في مقدمات شرح أبي موسى للأحاديث، ففي مقدمة شرح كل حديث يقدم لنا طريقة البناء اللغوي في الحديث فمثلا في حديث بدء الوحي الذي روته أمنا عائشة رضي الله عنها، يقول أبو موسى: "وأول ما تراه في هذا النص الشريف أن يتسلسل ويتتابع وهو في تسلسله وتتابعه يتدرج على مدرجة الزمن والحدث، وهذا بخلاف الحلال بيّن والحرام بيّن فإن نمو النص هناك وتدرجه لم يكن بامتداد الأحداث، وإنما هو النظر العقلي الذي يستقصي صور المعاني فالحلال يقابله الحرام والمشتبه واقع بينهما، والناس في هذا المشتبه قسمان، وهكذا، وهو غير: مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، هذا له امتدادت أخرى وتعاريج أخرى وبناء آخر"[1].

وهو ما وضحه عندما جاء لشرح هذا الحديث بقوله: "والحديث الشريف كله جملة واحدة[2]، وهذه الجملة الواحدة لها جذر تفرعت منه كل الفروع، واستمدت منه حتى طالت وسخت، والجملة الأم التي هي بمثابة الجذر قوله عليه الصلاة والسلام: مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا ...." [3].

---

(1) شرح أحاديث من صحيح البخاري (ص**64**).

(2) لا يعني هنا مصطلح (الجملة) ما يعنيه عند النحاة، وإنما مصطلح الجملة هنا يعني الوحدة اللغوية التي تدل على فكرة جزئية واحدة. وعليه فتقسيم النباء اللغوي إنما يتم بالنظر إلى التقسيم المعنوي، لأن التركيب والبناء تابع للمعنى. لنلحظ كيف ركب الوحدات اللغوية في الخطاب النبوي.

(3) شرح أحاديث من صحيح البخاري (ص**183**).

وهكذا عند قوله ﷺ: "مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ" فذهب إلى بناءه اللغوي "مكون من ثلاث جمل جملتان كأنهما مقدمة، وجملة كأنها نتيجة، وهو من الكلام الشديد الايجاز ... وفيه من إحكام البناء وإتقان الرصف، ما يجعله من أفصح الكلام وأبينه"[1].

إن تناول الهيكل اللغوي للحديث البنوي يفتح لنا آفاقا فسيحة في أنماط توزيع المعاني على الصياغة اللغوية بما يحقق تبليغ المقصود وفق هيكل متكامل. ففي هذه الأمثلة التي أشرنا إليها يمكن أن نلخصها على النحو الآتي:

(1) شرح أحاديث من صحيح البخاري (ص**127**).

الحديث النبوي	هيكل البناء اللغوي	التفصيل
حديث بدء الوحي: عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِى النَّوْمِ ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ اللَّيَالِىَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ ، فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا ، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِى غَارِ حِرَاءٍ ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ اقْرَأْ . قَالَ « مَا أَنَا بِقَارِئٍ » . قَالَ « فَأَخَذَنِى فَغَطَّنِى حَتَّى بَلَغَ مِنِّى الْجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِى فَقَالَ اقْرَأْ . قُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ . فَأَخَذَنِى فَغَطَّنِى الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّى الْجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِى فَقَالَ اقْرَأْ . فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ . فَأَخَذَنِى فَغَطَّنِى الثَّالِثَةَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِى فَقَالَ (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ) » . فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -يَرْجُفُ فُؤَادُهُ ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رضى الله عنها فَقَالَ « زَمِّلُونِى زَمِّلُونِى » . فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ « لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِى » . فَقَالَتْ خَدِيجَةُ كَلاَّ وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَداً ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَتَقْرِى الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ . فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ - وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِى الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِىَّ ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ ، وَكَانَ شَيْخاً كَبِيراً قَدْ عَمِىَ - فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ . فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ يَا ابْنَ أَخِى مَاذَا تَرَى فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - خَبَرَ مَا رَأَى . فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ هَذَا النَّامُوسُ الَّذِى نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى - صلى الله عليه وسلم -يَا لَيْتَنِى فِيهَا جَذَعاً ، لَيْتَنِى أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - « أَوَمُخْرِجِىَّ هُمْ » . قَالَ نَعَمْ ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِىَ ، وَإِنْ يُدْرِكْنِى يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْراً مُؤَزَّراً . ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّىَ وَفَتَرَ الْوَحْىُ"	تسلسل البناء اللغوي بتسلسل الزمن والحدث	تنامى البناء اللغوي مع تنامي الأحداث وتقدم الزمن، فبدئ الحديث بالحديث عن علامات النبوة (أول ما بدئ ...وهو في غار حراء)، ثم مجيء جبريل إليه والحوار الذي دار بينهما(فجاءه الملك ... يرجف بها فؤاده)،. ثم حال النبي ﷺ بعدها(فدخل على خديجة ... على نوائب الدهر) ثم ذهاب خديجة رضي الله عنها به ﷺ إلى ورقة بن نوفل ومحاورته(فانطلقت به ... وفتر الوحي).
حديث الحلال بين والحرام بين: عن النُّعْمَانِ بْن بَشِيرٍ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ: "الْحَلالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمورٌ مُشْتَبَّهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِعِرْضِهِ وَدِينِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِى الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِى أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلا وَإِنَّ فِى الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِىَ الْقَلْبُ".	الحصر بحسب ما يقتضيه النظر العقلي(1)	وذلك أن القسمة تقتضي أن هناك حلالا واضحا وحراما واضحا، وأشياء أخرى تبقى بينهما تخفى على كثير من الناس، فجاء البناء اللغوي على حسب هذا التقسيم - (الحلال بين)= جملة أولى - (والحرام بين)= جملة ثانية - (وبينهما أمور مشتبهات .... ألا وهي القلب): هذه جملة ثالثة
حديث (مثل ما بعثني الله به: عن أبي مُوسَى، عن النبي (صلى الله عليه وسلم) :" مَثَلُ مَا بَعَثَنِى اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ، أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ	عبارة عن جملة واحدة	هذا الحديث يقوم على جملة أمّ وهي قوله ﷺ : (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير

(1) هكذا عبر عنه محمد أبو موسى، لكن تقسيم الأشياء بين الحلال والحرام ليس ناتجا عن قسمة عقلية وإنما هو ناتج عن حكم شرعي.
ولهذا فالأولى أن نقول حصر الأشياء بحسب التقسيم الشرعي.

فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ"	فيها أصل واحد وتتفرع عنه فروع أخرى	أصاب أرضا) ثم يأتي التفريع عن هذا الأصل: 1- فكان منها نقية .... وكانت منها أجادب ... 2- وأصاب طائفة أخرى إنما هي قيعان.... ثم يأتي ربط الجميع بالجملة الأولى:(فذلك مثل من فقه ...)
حديث (ما من الأنبياء نبي): قوله صلى الله عليه وسلم : "مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ".	تدرج البناء اللغوي بحسب البناء المنطقي	قلنا جاء بحسب البناء المنطقي لأن الحديث في مجمله ثلاث جمل: منها اثنتان مقدمة والثالثة نتيجة. - (ما من الأنبياء ... آمن عليه البشر) = جملة أولى - (وإنما كان الذي .... أوحاه الله إليَّ)= جملة ثانية هاتان مقدمتان، والنتيجة: - (فأرجو... يوم القيامة) =جملة ثالثة

وما يمكن أن يلحظ على هذا التحليل لهيكل البناء اللغوي أن:

- حجم اللغة ضُبِطَ بحجم الأحداث والمعاني المعبر عنها، فلما كان الحديث خطابا سرديا يشرح لنا المرحلة التي نبئ فيها رسول الله -صلوات الله عليه تترى-، كان الحجم اللغوي مفتوحا الباب غير مقيد بعدد من الجمل، بل جعل متناميا مع الأحداث وزمنها، في مقابل ذلك، نجد أن باقي الأحاديث جاءت لتقرير بعض المعاني التشريعية أو العقدية، فقد جاء حجم البناء اللغوي مضبوطا ضبطا منطقيا أو ضبطا عقليا أو شرعيا ليحصل التواؤم والتلاؤم والتناسب بين المعنى واللغة المعبر بها عنه، فيسهل على المخاطب إدراك المقصود واستيعابه، وفي هذا تأكيد لأمر الوضوح والبيان الذي أشرنا إليه سابقا.

- أن التنوع في الأشكال والهياكل اللغوية للحديث النبوي ينبئ عن التنوع الاستراتيجيات الخطابية التي سلكها الحديث النبوي في التواصل، لأن الشكل اللغوي هو أحد العناصر البارزة والداخلة في تكوين الاستراتيجية الخطابية ، وهو تختلف باختلاف ظروف السياق، أو هو-بعبارة أخرى- "محاولة التكيف مع عناصر السياق المحيط بالفعل"[1]، وحسن هذا التكيف هو ما يعبر عن الكفاءة التداولية.

3- تعانق التراكيب اللغوية بالأحداث والمقاصد في الأحاديث النبوية: وهذا العنصر من صميم التحليل اللغوي للخطاب، لأنه يبرز تعانق التراكيب اللغوية بالأحداث والمقاصد، فيبرز لنا كيف أن التركيب اللغوي يستجيب للحدث الواقعي، محاولا نقله بأمانة، ملما بتفاصيله ومجرياته، أو بالمقابل

(1) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، ط**1**، **2004** (ص**55**).

محاولا تجسيد مقصد المتكلم وتصويره، فيعرض للتركيب اللغوي مجموعة من الظواهر اللغوية: كالتقديم والتأخير والحذف والتعريف والتنكير واختيار اللفظ دون غيره و.. و..و .... إلى غير ذلك من تلك الظواهر التي يبرز بها تعانق الحديث النبوي مع الحدث الواقع أو المقصد المروم، أو تلك الظواهر التي تنبئ عن أن المتكلم قد استثمر كل الوسائل اللغوية -وهي أحد مكونات الخطاب- في تأدية خطابه، فتتحول بذلك العناصر اللغوية من وضعها السكوني الصامت إلى وضع ناطق في السياق الخطابي.

أسهب كثيرا أبو موسى في بيان تعانق التراكيب اللغوية في الحديث النبوي بالأحداث والمقاصد مبرزا من ذلك السرَّ في الاختيار النبوي في أحاديثه. فإذا جئنا على سبيل المثال إلى قوله صلى الله عليه وسلم : "مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ". فإن يمكن لنا أن نلخص بعض تلك التعانقات التي تخدم المعنى بدقة، وتؤدي المقصد العام للحديث بوضوح، كالآتي[1]:

سبق أن ذكرنا بأن هذا الحديث جاء في هيكله اللغوي مرتبا ترتيبا منطقيا على وفق ثلاث جمل؛ مقدمتان ونتيجة، وقد تضمنت تلك الجمل كثيرا من التعانقات اللغوية مع معانيها لتبرزها بصورة واضحة جلية، لها قوة العبارة ونصاعة الصورة.

الجملة الأولى: (مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ)

أ- (ما من الأنبياء نبي ..):

1. ذكر الصفة (من الأنبياء) ومعناها مفهوم من غير ذكرها لتوكيد الاستقصاء؛ أي الإحاطة والشمول.
2. تقديم هذه صفة (من الأنبياء) خلعها من أن تكون تابعة لنبي، ووضعها في أول الكلام، لتحضر في القلب الأنبياء المعروفين بالنبوات والمعجزات، حضورا قويا مؤكدا.

ب- (إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ):

1. الفعل: (أعطي) تعني أن الآية لا حول للنبي فيها ولا قوة، وإنما هي محض عطاء من الله
2. (آمن عليه) تعدية هذا الفعل بـ(على) لأن الفعل ضمن معنى الغلبة، أي؛ يؤمن بذلك مغلوبا عليه لا يستطيع دفعه إلا معاندة ومكابرة ، بخلاف تعديه باللام (آمن له) فمعناها: انقاد له، وبخلاف تعديته بالباء (آمن به) فمعناها : صدقه.
3. (مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ): لو جاء الكلام (ما آمن عليه البشر) لكان مفيدا، لكن يفوت عنه معنى جليل له تعلق كبير بمقصود الحديث، فإن كلمة (مثل) جعلت كل آيات الأنبياء على مثال واحد، غير آية نبينا ﷺ. فالمعنى: ما كان مثله لمن كان قبله من الأنبياء)

---

(1) شرح أحاديث من صحيح البخاري (من: ص**127** ... إلى: ص**130**).

الجملة الثانية: (وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ):

ج- (وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ):

1. (إنما ...) اتفقت مع الجملة الأولى في الأسلوب (القصر) اختلفت معها في الأداة، فكانت الأولى (بالنفي والاستثناء) لأنها تفيد زيادة في التوكيد تناسب كلاما يشوبه الإنكار فتأتي معه مقوية له، وهو ما كان في الجملة الأولى، فقد يعرض للذهن أن يكون هناك نبي مستغن عن آية لكونه لم يؤمر بالتبليغ أو لكونه مبلغا لشرع سابق قام عليها برهان سابق، فجاء النفي والاستثناء لينفي ذلك ويبطله. أما هذه الجملة التي معنا فجاء القصر فيها بـ(إنما): التي تستعمل الأمر الجلي الواضح المعروف، المقبول عند السامع الذي لا يحتاج إلى جدل ومناقشة[1]، والرسول ﷺ يحدث عن أمر معروف مشهور عند المخاطَبين، وهو القرآن الكريم؛ حجته ودليل نبوته.
2. (وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ)، ولو قال ﷺ : وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا، لكان كافيا، لأن الوحي إنما هو من الله سبحانه، ولكن جاءت هذه الصفة (أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ) للتنويه بهذا الوحي وتعظيمه عند تأكيد نسبة لله سبحانه تشريفا وحفاوة.

الجملة الثالثة: فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ

هذه الجملة هي النتيجة المترتبة على ما سبق، قد ربطت بما يفيد هذا الترتب وهي (الفاء)، وهذه الجملة هي مقصود الحديث، لأن ما أوتيته النبي ﷺ كان آية متميزة عما أُوتِيَه الأنبياء من الآيات التي كانت متماثلة، فلما كانت هذه الآية متميزة كانت نتيجتها أن يكون صاحبها ﷺ أكثر أتباعا من غيره. فهي آية باقية تخاطب كل الأجيال، لا تذهب بموته ﷺ، بل هي في كل الزمن كيوم نزلت.

هذه هي الإشارات التي أشار إليها محمد أبو موسى في تحليله اللغوي لهذا الحديث النبوي، وقد جاءت على هذا النحو في غيرها من الأحاديث، والذي يهمنا نحن من هذا التحليل اللغوي:

1- تعانق الظواهر اللغوية مع الأحداث لتبليغ المقصود، فقد رأينا كيف أن لغة الحديث رسمت خيوط المقصود من الجملة الأولى؛ وذلك ببيان أن آيات الأنبياء جميعا تلتقي في نقطة واحدة تشترك فيها جميعا، وكيف جاء البناء اللغوي مؤكدا هذه الحقيقة ناصا عليها. وفي الجملة الثانية النص على تفرد ما أوتيه النبي ﷺ بكونه لم يكن لغيره من الأنبياء مثلُ ما كان له، في كونه كتابا وبرهانا باقيا، لتأتي بعدها النتيجة خاتمة لتعاضد هذه الظواهر اللغوية، أن يكون أكثرهم تابعا، لأن رسالته الأظهر فأتباعه أظهر.

2- يظهر لنا من هذا التحليل اللغوي القوة التي تتمتع بها لغة الحديث النبوي، حتى إنه ليمكن القول إن لغة الحديث النبوي تؤسس لنموذج خطابي فريد، وُظفت فيه الأدوات والوسائل اللغوية توظيفا

---

(1) يمكن الاطلاع على كتاب: أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية لصبَّاح عبيد دراز،مطبعة الأمانة–مصر، ط1، 1406هـ، (في ص:163 وما بعدها، وص:218 وما بعدها) وهو بحث نفيس في بيان الفروقات البلاغية الموجودة بين أساليب القصر وطرق استعمالها.

فائقَ دقة، وبتركيز متين، جامعا بين هذا وبين قمة الوضوح والبيان، بعيدا عن كل أسباب الغموض أو التعثر، فعلى الرغم من ذلك الوضوح، فهي لغة في أبهي صور الدِّقة والتَّركيز.

خاتمة :

يمكن القول إنَّ التحليل اللغوي للحديث النبوي هو فتح باب من أبواب الدراسة اللغوية التي لا زالت تحتاج إلى جهود معتبرة لما في الخطاب النبوي من خصائص وميزات ليست لغيره وليست في غيره. فهو خطاب قد أسس فيه النبي ﷺ -بوحي من الله سبحانه- لبناء لغوي بلغ أرقى وأقوى ما يمكن أن تصل إليه البيان البشري، وتحليل الحديث النبوي هو كشف عن تأسيس لغوي وبلاغي وتواصلي حاز كفاءة وقدرة في استجماع تلك الأسس.

فالبلاغة التي نعرفها تؤسس في مجملها للكذب الفني بينما البلاغة التي في الحديث النبوي تؤسس للصدق الفني والحقيقي، ومن حيث التأسيس اللغوي فالحديث النبوي يؤسس لخطاب وصل إلى قمة البساطة والوضوح مع قوة الدقة والإحكام.